

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ،  
قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ،  
ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا  
تعلمون .وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عَرَضَهُمْ عَلَى  
الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ . قالوا سبحانك لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ  
أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قال يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ،  
فلما أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .  
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ  
أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[ البقرة : الآيات ٣٠ - ٣٤ ]

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه والمبلغ إلى الناس بلفظه وحرفه ، لأنه  
منهاج الله الذى رسمه للبشر ، وأمرهم أن يتبعوه . وكل آية من آيات الكتاب  
المبين تحمل جانباً من المنهج ، وترسم للبشر قطعة من الصراط المستقيم ، وتبين  
لهم شيئاً من مرادات الله من خلقه ، وفى أثناء قراءتى لكتاب الله وإنصاستى إليه  
يوماً بعد يوم دونت الكثير من الآيات التى لا يتبين لنا كل ما تتضمنه من التشريع  
والحكمة إلا إذا قرأناها مرة بعد أخرى ، وتدبرناها حيناً بعد حين ، وأنا هنا أختار  
من هذه التدوينات ما أحسست أنها وما سبقها وتلاها وتغلق به معناها من آيات  
الذكر الحكيم ، تجمع الأساس الذى لا بد من معرفته من عقيدة الإسلام وشريعته  
وقانونه الأخلاقى ، وأنا أسوقها فى هذا الكلام على حذر منى وخوف ، لأن من  
بين قرائى دون شك من هو أعلم منى بكتاب الله وعلومه ، ولهذا فإننى أرجو  
هذه الجماعة الكريمة من العلماء ألا يخلوا على بالتوجيه والتصويب ونصيحة  
المسلم للمسلم التى جعلها رسولنا الأكرم صدقة .

الوقت ساعة الغروب ، ونحن على ضفة النيل جنوب القاهرة ، أحسست  
أنى على حافة الأبد . تركت صبحى خلفى ومضيت فى قارب صغير ، لأننى  
أحسست أننى أريد أن أكون وحدى ساعة المعجزة الكبرى التى تتكرر يوماً بعد  
يوم ، وتشغلنا عنها زحمة الحياة ، فتمر بنا دون أن ننتبه إلى روعة الإعجاز فيها ،  
عندما يولج الله الليل فى النهار ، هنا يتسع النيل حتى يصير بحراً . وأدع  
المجداف ويثف بى القارب وسط النهر الكبير ، ولا أعود أسمع إلا حفيف الماء  
الجارى .

أحسست بالصمت الرهيب ، لأنه بدا لى أن مياه النيل آن لها أن تسكن  
لسترد أنفاسها بعد جرى النهار .

الظلام الآن يهبط ، ولا أعود أرى إلا أطراف أعواد نبات أخرجت رؤوسها فوق الماء طلباً للنسيم . صفحة الماء الصافية كأنها مرآة ، والسكون من حولي شامل ، أضواء الضئفة الأخرى تختفي ، وفي صفحة الماء أرى نجوم السماء تطلع واحدة ثم اثنتان ثم عشر . وأرفع رأسي فإذا قبة السماء تتلألأ بآلاف بعد آلاف من النجوم ، من بعيد أسمع صوت صرار الليل ، لقد نامت البرية وأن له أن يصحو ، فإن نهاره هو الليل ، وهذه دورة الحياة : مخلوقات تنام ومخلوقات تصحو ، والكون لا ينام أبداً ، لقد صحا الصرار لأنه اطمأن على نفسه ، فقد نام أعداؤه ، وهذا هو ينادى وليفته ، وهاهي ذى تحيب ، هكذا تتم دورة الحياة كما أرادها علام الغيوب أن تكون .

الليل الآن شامل والكون لا تضيئه إلا النجوم ، ملايين من العيون تنظر إلينا من بعيد ، هذه شمس ونجوم ومجرات لا يعلم بها إلا بارئها سبحانه ، عوالم تصغر إلى جانبها أرضنا هذه بكل ما فيها ومن فيها . .

في صمت الليل أسمع وجيب قلبي يقول : هذه أيها الغافل دنيا الله ، إنك الآن ترى جمالها في أبهى صوره ، لأنك تحسها بقلبك ، ونبضات قلبك هذه تسيحات للخالق ، تلك هي سجاوات الله العلا ، أنشأها على هذا النمط الفريد ، ونجومها تتراعى إلى آفاق يصعب عليك تصورها ، لأن عقلك الكليل عاجز عن أن يحيط بها ، الآن تدرك معنى قول خالقك جل وعلا في سورة البقرة : ( ٢ / ٢٥٥ ) آية الكرسي : **إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** .

أجل هذا هو عالم الله ، وأنت فيه لا شيء ، عوالم بعد عوالم ، خلقها الله وصورها في صور شتى لحكمة لا يعلمها سواه ، أرايت إلى رؤوس النبات هذه التي ترف من حولك ؟ إنها وحدها عالم شاسع فياض بالحياة والحركة ، وهي ثابتة في مكانها ، إنه عالم النبات والشجر والزهر والثمر ، وهذا الصرار الذي تسمع صوته من بعيد ، إنه عالم آخر ، عالم المخلوقات الدقيقة الضعيفة التي أودع الله فيها من الحيوية والقدرة على مغالبة الفناء ما يفوق قوة الفيل الهائل ، وسيأتي يوم لا تكون فيه الفيلة إلا في حدائق الحيوان ، أما هذه الحشرات الضعيفة فهي في زيادة ولا يغلبها من مخلوقات الله غالب ، والعلماء يقولون إنه سيجيء يوم لا يبقى فيه مما يدب على سطح الأرض إلا هذه الحشرات ، وأنت أيها الإنسان الضئيل تشكو منها وتسعى في إبادتها ، وهي أقوى منك وستعيش بعدك لحكمة لا تدركها أنت ، لقد خلقها الله كما برأ هذه المصاييح التي تزين السماء ، خلقها كما فطرك أنت ، كلكم عوالم أنشأها صاحبها ، ولكم في خلقها حكمة وعظمت . واستمع إلى قول الحق سبحانه في سورة ق :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضِ مَدَنْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ . وَانْبَثْنَاهَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ . تَبْصِرَةٌ وَتُكْرِى لِكُلِّ عِيدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا . فَأَنْبَثْنَا بِهِ جَنَاتٍ وَحَبِّ الْحَصِيدِ . وَلَنَخْلَ بِأَسْفَاطٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ . [ الآيات : ٦ - ١١ ] .

صدقت يا باري الكون ، هذا هو قرآنك وذلك هو كونك ، والاثنان صنوان تلك هي دينك ودياننا وهذه هي حكمتك نراها في خلقك ، وتقرؤها في كتابك ، والاثنان في قلبي لتلتقيان .

وأنت - جللت . وعززت - القائل في سورتك . . سورة الرحمن :

﴿ وَالْأَرْضِ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

[ الْآيَات : ١٠ - ١٣ ] .

مَا أَرَوْعَ كَلَامِكَ وَمَا أَبْدَعَ صَنْعَكَ ، فِي كُلِّ مَعْجَزَةٍ مِنْ خَلْقِكَ أَحْسَنَ مَعْجَزَةٍ الْقُرْآنُ . وَفِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ قُرْآنِكَ أَرَى كَوْنَكُمْ هَذَا الْبَدِيعِ .

وَمَا أَعْجَبَ قُرْآنَكَ !

إِنَّهُ كِتَابٌ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْبِرْ إِعْجَازَهُ الْوُفَّ بَعْدَ الْوُفِّ - إِلَى مُنْقَطَعِ النَّفْسِ - مِنَ الْكُتُبِ ، وَأَنْتَ تَتَحَدَّثُ فِيهِ حَدِيثًا عَجَبًا .

فَأَنْتَ تَارَةٌ تَتَحَدَّثُ فِيهِ بِذَاتِكَ الْجَلِيلَةِ وَكَلِمَاتِكَ تَتَرَدَّدُ فِي كِيَانِي كُلِّهِ وَأَنْتَ تَخَاطَبُ نَبِيَّكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ طه :

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ .

[ الْآيَات : ١٢ - ١٥ ]

وَأَنْتَ تَارَةٌ تَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِكَ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ . [ الْأَنْعَامُ ٦ / ١٨ ]

وَأَحْيَانًا أُخْرَى تَتَحَدَّثُ عَنْ أَنْعَمِكَ عَلَيْنَا بِضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ :

﴿ أَهُمْ يَقْسَمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . [ الزَّخْرَفُ ٤٣ / ٣٢ ] .

: وأحياناً بأمر نبيك أن يبلغنا حكمتك :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . [ الزمر ٣٩ / ٥٣ ] .

وهنا في مجال أمر الرسول بأن يبلغ عن الله يجمع الله من آيات حكمته وتشريعه وهدهاء ما لم يجعله في مجال آخر ، لأن في ذلك تكريماً للرسول وطبيعة رسالته ، والرسول ﷺ بشر رفعه الله إلى مرتبة النبوة ثم مرتبة الرسالة ، وفي ذلك - من طرف آخر - تكريم للبشر لأنه يعنى أن المخلوق البشرى قادر - إذا شاء الله - أن يرتفع بنفسه عن مستوى البشرية فيكون أهلاً لأن يتلقى كلمات الله ويبلغها لإخوانه في البشرية ، وهذه مرتبة لم يرفع الله إليها شيئاً من مخلوقاته إلا الإنسان ، وهذه ميزة من ميزات الإسلام ، فإن حامل رسالته إلى الناس إنسان من البشر ، اختاره الله وهياه - في حدود إنسانيته دون غيرها ، ليصل إلى مستوى رسل الله ، في حين أن غيره من الأنبياء حملة الرسالات كان لابد أن يعينهم الله بقوة خارجة عن قوة البشر ، لكي يستطيعوا أداء رسالتهم ، وفي العادة يمنح الله الرسول جانباً من قدرته ليأتى بمعجزة يثبت للناس بها أنه حقاً مختار من الله لحمل رسالته إلى الناس ، كما ترى في حالات إبراهيم وموسى وعيسى ، ومن أبلغ أمثلة هذا في القرآن الكريم مثال إبراهيم عليه السلام الذي سأل الله سبحانه أن يريه كيف يحيى الموتى ، فأراه الله كيف يحيى الموتى ، بل أراه كيف يعطيه جانباً من قدرته فيحيى هو الموتى بنفسه بأمر الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ . ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . [ البقرة : ٢٦٠ / ٢ ] .

وكذلك عيسى بن مريم احتاج إلى مدد غير بشرى من الله سبحانه ليؤكد للناس أنه نبي مرسل من عند الله :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي خَلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ . وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

[ آل عمران ٤٩ / ٣ ] .

قارن بذلك مقال رسول الله محمد صلوات الله عليه الذى هياه الله لإقناع الناس ببشريته وحدها ، أنه رسول الله الصادق فيما يبلغ عن الله ، مع تحدى المشركين إياه وإسرافهم فى هذا التحدى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ .

[ الإسراء ١٧ : ٩٣ / ٩٠ ] .

ذلك لأن معجزة محمد الكبرى هى القرآن الكريم ، فإن القرآن يحمل فى ذاته برهان صدقه وآلاء قوته وبراهين صدوره عن الله سبحانه ، إذ لا يتأتى صدوره عن غير الله ، لا من ناحية إعجاز أسلوبه وعجائب بلاغته وبيانه وروعة إنشائه وبنياته فحسب ، بل لأن آياته تحمل فى ذاتها براهين صدقه ، حتى إذا قرأها غير العربى الذى لا يقتدر على الاحساس ببلاغتها آمن بها إذا أراد الله له

الهدى ، واقرأ الآيات التالية لترى كيف أن آيات القرآن تحمل دلائل صدقها في كلماتها :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ فَنُذِرُهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

[ الأنعام ٦ : ١١١ / ١١٢ ]

فهذا كلام لا يصدر إلا عن إله عارف بطبائع البشر ، وبها جرى للأنبياء على أيدي الناس ، وهو مطلع على الغيب ، فهو يعرف أن القرآن والإسلام منصوران بفضل سبحانه دون حاجة إلى معجزات ، بل إن أعداء الأنبياء ينصرونهم بعنادهم دون أن يدروا ، لأن الناس لا يلبثون أن يروا أن كل عنادهم زخرف من القول وغرور لا يتحصل من ورائها شيء فإذا انتصر الإيمان في النهاية بان للناس صدق كلام الله فزادوا إيماناً ، والآيات القليلة من نفس السورة تؤيد ذلك بأجلى بيان :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ . فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

[ الأنعام : ٦ / ١١٤ - ١١٥ ]

وقول الله سبحانه هنا ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ في وقت لم تكن كلمات الله - أى نص القرآن - قد تمت ، يدل على أن المتكلم وهو الله سبحانه يعرف أنها ستم ، لأنها تمت فعلاً قبل انتقال الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ، ولفظ « صِدْقًا » هنا يعنى أنها عندما تتم ستكون كلمات الله سبحانه بكل حرف فيها ، أما « عَدْلًا » فمعناها هنا بغيّة الدقة ، ولفظ العدل له معان شتى في القرآن الكريم ، لأن العدل بمعانيه المختلفة أساس من أسس أخلاقيات الإسلام ، فليس العدل في القرآن هو ضد الظلم في كل حالة ، بل من معانيه الضبط والإحكام ، ومثال ذلك العدل في قوله تعالى في آية الدين ﴿ وَلِيَكْتَبَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ كَاتِبٍ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ فالمراد هنا فليكتب الكاتب ما يمل عليه بالضبط لأن المطلوب من الكاتب هو أن يكتب ما يمل عليه بالضبط ، لأن الكاتب ليس بقاض ولا هو طرف في القضية ، وكل المطلوب منه أن يكتب بالضبط وكما علمه الله أن يكتب ، والمسئولية كلها هنا تقع على الممل على الكاتب ، ولهذا فإن الله يقول بعد ذلك عن الممل ﴿ وَلَيَقْبِضَنَّ اللَّهُ رِبْعَهُ وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى أن مسئولية مراعاة الله تقع كلها على الذى يمل لا على الذى يكتب ، لأن المطلوب ممن يكتب هو أن يكتب ما يمل عليه بالدقة الكاملة دون زيادة أو نقصان في حرف ، ودليل آخر على ذلك هو أن الله اشترط أن يكون هناك شهود ضمانةً للدقة ، ثم إن الله يقول بعد ذلك ﴿ وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ أى لا يؤذى الكاتب أو الشاهد على التزامه الدقة في الكتابة ، وربما عدنا بعد ذلك إلى الكلام على معانى العدل في القرآن ، لأنه كما ذكرنا ركن من أركان أخلاقيات الإسلام ، وهى مكارم الأخلاق .

ولنرجع إلى آيات سورة الأنعام التى ذكرناها :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

المتمرين . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴿

[ الأنعام / ٦ - ١١٤ - ١١٥ ]

ف نقول عن قوله سبحانه ﴿ لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ إن التبديل الذى أصاب كلام الله تعالى فيما يتعلق بكتبه السابقة على القرآن الكريم حقيقة لا شك فيها ، ولا ينكرها العارفون بتواريخ الأديان السهاوية الأخرى الذين يسميهم القرآن « أهل الكتاب » وليس من الضروري أن تكون هذه الكتب شبيهة بالقرآن الكريم فى هيئتها وصياغتها ، وإنما هى وحى من الله لنبىه ، وهذا الوحى فيه أصول الدين وعقيدته وشريعته ، وكان ينبغى أن يكتب النص ساعة وحيه كما حدث للقرآن . ولكن هذه الرسائل لم تدون ساعة وحيتها ، وإنما تلقاها أصحابها وبلغوها لأتباعهم ، وهؤلاء وعوها فى عقولهم دون أن يكتبوها ، وأخذها عنهم خلفاؤهم ، وانقضت أزمان طويلة قبل أن تدون ، ومن هنا جاء التبديل أو التحريف ، وليس من الضروري أن يكون ذلك قد وقع عن قصد وسوء نية ، بل إن مجرد تواتر الكلام على الألسنة وتناقله من جيل إلى جيل لابد أن يؤدى إلى التحريف والنسيان والنقصان والزيادة ، وهذا هو الذى حدث بالنسبة للتوراة والإنجيل ، فأما التوراة فإن اليهود أنفسهم يقولون إنها تجمع بين الكتب الخمسة الواردة فى أول « العهد القديم » أو مايسمى باسم البنتاتويخ Pentateuch ومأثورات التعاليم التى أوحيت إلى أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه كلها ظلت تتناقل شفاهاً على ألسنة اليهود عصوراً متطاولة حتى جاء الوقت الذى تنبه اليهود إلى ضرورة تدوين ذلك كله بمعرفة كهان الملة اليهودية المعروفين بالربيين Rabbis فاجتمع هؤلاء فى مجامع شتى ، وكتبوا مدونات مختلفة فى النص والمعانى ، وأطلق عليها التوراة ، وعلى أساس هذه التدوينات بدأ مايسمى بعصر اليهودية الربانية فى تاريخ اليهود Rabbimic Judaism وبعض هذه التدوينات تم على

أيدى كهان أتوا من منفى اليهود في بابل ، وبعضها تم على أيدى كهان ممن بقوا في أرض فلسطين ، وهناك شيء من الإجماع بينهم على أن الكتب الخمسة أو البتاتويخ أُوحيَت بالفاظها إلى موسى في سيناء ، وإن كان بعض شيوخ العقيدة من يهود الإسكندرية في العصر البطلمي يقولون : إن الفقرات التشريعية فحسب من هذه الكتب هي التي أُوحيَت إلى موسى .

أما الإنجيل فحديثه معروف لنا ، ولفظ إنجيل وهو في اليونانية Euangelion وهو لفظ مؤلف من مقطعين eu ومعناه الطيب أو السار ، angello ومعناه الإعلان أو الإبلاغ ، واللفظان معا يعنيان البشرى السارة . ومن لفظ an-gello أتى لفظ الإنجيل العربي ، ومعناه الدقيق هو السلاغ أو البيان ، ومن معاني البيان الوحي من الله ، وفي القرآن الكريم في سورة آل عمران :

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ ١٣٨ / ٣ ] .

والإنجيل الذي أُوحيَ إلى عيسى ابن مريم عليه السلام لم يدون في حين وحيه ، وإبما هو دون بعد عشرات السنين من وفاة عيسى عليه السلام . وأقدمها هو إنجيل مرقس الذي دون سنة ثلاثين ميلادية في الغالب ، وهي أناجيل كثيرة دونها الحواريون وتابعوهم ، وقد اعترفت المجامع الأدبية بأربعة منها . وهي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، أما البقية فقد رفضت على أنها زيوف أو أبو كريفنا كما تسمى عند النصارى ، ومن بين المفروضات إنجيل برنابا الذي يذهب الكثيرون من المسلمين إلى أنه أصح الأناجيل ، لأن الإشارة فيه إلى رسالة محمد صلوات الله عليه بالغة الوضوح والصراحة .

المهم أنها أناجيل وليست إنجيلاً واحداً ، ومادامت أناجيل فبينها خلاف في النصوص والمعاني والوقائع ، وهي في مجموعها تدوينات لما تذكره الحواريون أصحابها من وقائع حياة عيسى ابن مريم ، وأقواله ، وإما تعبيراً عما أُوحيَ إليه

وإما كلاماً من عنده ، فهي في جملتها تقابل الأحاديث والسير النبوية عندنا ، وهذه الأناجيل هي القسم الثاني من الكتاب المقدس عند النصارى بشتى مذاهبهم ، وهي المسماة بالانجليزية باسم Ejpils وهو العهد الجديد وتحقيق البشارة وكتاب الخلاص ، أما العهد القديم — وهو القسم الأول من الكتاب المقدس — فهي الكتب الخمسة التي ذكرناها ، وقلنا إن بعض اليهود يقولون : إنها التوراة وأسفار أخرى مما حكاه - أو حكى عن - أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه تقابل عندنا كتب تاريخ الرسل ، كما نجد في الجزء الأول من تواريخ الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وأبى الفدا مثلاً .

والمهم الذى أحب أن ألفت له نظير القارىء أنه لا يوجد بين أيدي اليهود أو النصارى كتاب يقابل القرآن ، أى كلام الله الموحى إلى نبيه بلفظه وحرفه والمبلغ إلى الناس في حينه بلفظه وحرفه ، وهم لهذا معذورون عندما لا يقولون بأن القرآن كلام الله ، لأنهم لا يعرفون شيئاً حقيقياً بين أيديهم يسمى كلام الله المنزل بلفظه وحرفه .

فهذا عندهم غير موجود والمسميات تعرف بمقابلاتها ، فلا تغضب إذا سمعت هذا الكلام ، إذ أنه ليس من الضروري أن يكون صادراً عن سوء نية بل عن جهل بكتاب الله سبحانه وكيف أنزل على رسول الله ﷺ وكيف وصل إلينا .

إلى هنا أقف بهذا المدخل ، وإن كنت لم أقل فيه كل ما أريد ، ولكننا نحب الآن أن ندخل في أحاديث الآيات المختارة ، وفي ثنايا الأحاديث نرجو أن نستدرك ما فاتنا قوله في هذا المدخل ، وبالله سبحانه التوفيق .

